الفصل السابع والعشرون

طهارة القلب ونقاؤه

من أراد أن يشرب ماء نظيفًا فإنه يغسل الإناء أولًا ليزيل ما علق به ثم يصب فيه الماء الزلال الذي يستطيبه ويستلذه، وكذلك فإن المعاني الإيمانية لا يستقيم غرسها في القلب إلا بعد تطهيره من الأدران المكدرة والآفات المهلكة والأمراض المؤذية، تلك التي تستوجب لصاحبها عذابًا في الدنيا والآخرة، وتشتت عزم القلب وتضعف همته وتخذله وتعميه، وتضله وتخبِّثه بأقذارها، ولن تقوم لمعاني الإيمان قائمة صحيحة إلا إذا تمَّ نزع وخلع تلك الآفات والأمراض التي تجذَّرت وتأصَّلت في كثير من القلوب، كالكبر والعُجب والحسد والغرور والحقد والنفاق العملي والغرق في الشهوات وإيثارها، فتعالوا نستعين بربنا في تطهير قلوبنا ولنصبر قليلًا على آلام المجاهدة وتناول الدواء؛ حتى تتم الصحة والسلامة بإذن الله، والله المستعان وعليه التوكل ومنه التوفيق والسداد.

حقيقة الطهارة

الطهارة: هي النقاء وإزالة الدنس، والتطهر والتطهير: التنزه والكف عن الإثم وما لا يجمل والتوبة التي تكون بإقامة الحد طهارة للمذنب[(١)].

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، و قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق[(٢)]، والطهارة كما قرر العلماء نوعان: طهارة ظاهرة، وطهارة باطنة، فالظاهرة تعني طهارة البدن والثوب والمكان ولا تصح

(١) «لسان العرب» (٤/ ٥٠٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦١) ط مكتبة الإيمان.

مـن العبد صلاة إلا بها، والطهارة الباطنة طهارة القلب من الآفات والأقذار الكامنة فيه وهذا هو محل الحديث الذي نخوض فيه الآن.

فضل طهارة القلب

القلب الطاهر أصلح بيئة لغرس معاني الخير والإيمان، ولكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس المتقذر كالبدن العليل المريض، لا تلائمة الأغذية التي تلائم الصحيح، ومن الفضائل التي تحث على طهارة القلب وتدفع إليها ما يلي:

أولًا- طاعة الله جَلَّ جَلَالُهُ:

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، أي: طهر قلبك بإصلاح الأعمال والأخلاق في قول جمهور المفسرين كما تقدم، يقول ابن القيم بعد أن ذكر الأقوال المتعددة في تفسير هذه الآية: تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم إن لم تتناول ذلك لفظًا، فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك؛ فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك؛ ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك؛ في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن لبسه من الفساد وأهل الفخر والخيلاء، والمقصود أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصورة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس فلا يتم إلا بذلك فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا[1].

(١) «إغاثة اللهفان» [٦٣].

obeikandi.com

ثانيًا- سلامة من الخزي والعذاب:

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: دلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه؛ ولهذا حرَّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين، ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاسته دخلها بغير مُعَوِّق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة ثم لا يخرج منها [(١)]، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيهذبون ويُنقّون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة ولم توجب لهم دخول النار حتى إذا هُذبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة [(٢)].

ثالثًا- سبيل محبة الله لعبده:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أي: المتنزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر المعنوي من الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة والأفعال الخسيسة [(٣)]، وعلمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدة الحرص على هذه الطهارة فقد شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني**

(١) أي: الجنة.

(٢) «إغاثة اللهفان» [٦٤].

(٣) تيسير الكريم الرحمن [١٠٠] باختصار.

من التوابين، واجعلني من المتطهرين»[(١)]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته، وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**»[(٢)]، كيف يطهر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك وقوله في لفظ آخر «**والماء البارد**» والحار أبلغ في الإنقاء؟ فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا فيرتخي القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفئ النار فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته فكان أذهب لأثر الخطايا[(٣)].

رابعًا- طاهر القلب أفضل الناس:

طهر القلب ينبع من تقواه وكلما كان العبد أتقى لله كان قلبه نقيًا صافيًا لا يحمل غلًا ولا حقدًا ولا ينطوي على خبث النفاق والرياء والكبر والغرور، عن عبد الله بن عمرو قال: قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**» قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»[(٤)]، إن صاحب القلب النظيف لا يحمل غلًا ولا حقدًا لأحد، لايحسد ولا يتلوث بغرور أو عجب؛ لأن الإيمان المطمئن فيه يدفع تلك الأكدار ولا يسمح إلا بوجود ما هو صافٍ نافع يغذي الإيمان ويقويه، ويزيد اليقين

---

(١) رواه الترمذي برقم [٥٥]ن وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٦١٦٧].

(٢) رواه البخاري برقم [٧٤٤]، ومسلم برقم [٥٩٨].

(٣) المصدر السابق [٦٤-٦٥].

(٤) رواه ابن ماجه برقم [٤٢١٦]، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٤٦٢) برقم [٦٦٠٤]، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٩٤٨].

والتقوى فيه، أما القلب المريض فهو عرضة للآفات والفتن من السهل أن يفتتن إذا فتن وأن ينتكس إذا ابتلي، فطهر قلبك تسترح، طهر قلبك ليكون صالحًا لزيادة الإيمان ورسوخه.

مراحل طهارة القلب

أولًا - تطهير القلب من الكبر:

من أخطر ما يفسد القلب ويعميه ويضله ويشقيه، مرض الكبر، فالمتكبر مصدود عن الحق بغيض إلى الخلق مستحق للمقت، جاهل بعظمة ربه وجلاله، ظالم لنفسه بما استجلب لها من عذاب عاجل وآجل، نظره إلى الناس شذر، ومشيه بينهم تبختر، معاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار، معجب بنفسه، مغرور بحاله، لا يبدأ من لقيه بالسلام، يرى حقوقه على الناس ولا يرى لأحدٍ عليه حقًا، ويرى فضله على الناس ولا يرى لأحدٍ عليه فضلًا، لا يزداد من الله إلا بعدًا، ولا يزداد عند الناس إلا صغارًا وبغضًا، ومما ينفر من الكبر ويحذر منه أن يعلم خطورته وعاقبته، ومنها أن المتكبر مصدود عن فهم كلام الله وتدبره والانتفاع به، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٧٥]، أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي عن قلب المتكبرين عن طاعتي[(١)].

ومنها أن المتكبر يكرهه الله ولا يحبه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣]، وكفى بذلك زاجرًا عنه، فإن من باء بغضب الله ومقته قد خسر كل شيء حتى نفسه، وما أشقاه وما أتعسه، ومما يزجر عن الكبر أن المتكبر عاقبته العذاب المهين في نار الجحيم، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢]، [غافر: ٧٦]،

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٤٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(٢).

ومما يزجر عن الكبر أن من كان في قلبه مثقال ذرة منه حُرِمَ دخول الجنة، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٣).

ومن ذلك أن المتكبر قد يعاقب في الدنيا بعقاب يذله ويهينه ويجعله عبرة للناس وعظة للمتكبرين هنا في الدنيا والعذاب في الآخرة أشد وأبقى، فعن سلمة بن الأكوع أن رجلًا أكل عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشماله فقال: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع قال: «**لا استطعت**»، ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه(٤). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بينما رجل يمشي في حُلَّةٍ تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»(٥).

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٢٠].
(٢) رواه مسلم برقم [١٠٧].
(٣) رواه مسلم برقم [٩١].
(٤) رواه مسلم برقم [٢٠٢١].
(٥) رواه البخاري برقم [٥٧٨٩]، ومسلم برقم [٢٠٨٨].

obeikandi.com

ومن مذلة المتكبر وخذلانه أنه يعامل بنقيض قصده، فكما تكبر في الدنيا فإنه يجد الذل والخزي والهوان في الآخرة، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صورة الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنبار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**»(١).

الكبر سنة إبليسية لا تليق إلا بالمجرمين أتباع الشياطين، فالمتكبر من حزب الشيطان أصحاب الجحيم، فهل يرضى عاقل لنفسه بذلك؟! والكبر يجلب لصاحبه الطبع على القلب، فإذا طبع على القلب فقد استوجب الخسران المبين والعذاب المهين المقيم، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غَافِر: ٣٥].

أي أخي، أحذرك ونفسي من الكبر فإنه البلاء العظيم الذي لا يرحم عليه صاحبه بل يزداد بغض الله له كلما ازداد المرء منه، ولا ينطوي على جرثومة الكبر إلا قلب جاهل بعظمة الله وجلاله، غافل عن آخرته ووقوفه بين يدى ربه فنعوذ بالله من الكبر وأهله.

إن العبد لا يليق به إلا التواضع والذل لله جَلَّ جَلَالُهُ وخفض الجناح للمؤمنين، رأى مطرِّف بن عبد الله رجلًا من الوجهاء يمشي وعليهُ حُلَّة يجرها ويمشي الخيلاء، فقال له مطرف: يا عبد الله، أما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك؛ أَوَّلُك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بولٌ وعذرة(٢).

وقال محمد بن علي بن حسين: يا عجبًا من المختال الفخور الذي خلق من نطفة ثم يصير جيفة لا يدري بعد ذلك ما يفعل به!

ثانيًا- تطهير القلب من الغل والحقد:

سلامة الصدر ونقاء القلب وصفاء النفس مطلب عظيم يفتقر إليه كثير منا في هذه الأيام، إن طاهر القلب لا يعرف الانتقام ولا التشفي، ولا يبحث عن الأخطاء والهفوات

(١) رواه أحمد برقم [٦٦٧٧]، والترمذي برقم [٢٤٩٢]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٧٨٩٦].
(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي [٢٢٦] ط جنة الأفكار.

والعثرات، إنه يحب الخير لإخوانه كما يحبه لنفسه، يحب العفو والصفح، ويعف لسانه فلا يسب ولا يشتم ولا يجرح ولا ينتقص من إخوانه، ولا يتتبع عوراتهم وزلاتهم، طاهر القلب يثبت ولا يتسرع ويحسن الظن بالمسلمين، ومن صور طهارة القلب ما قاله معاذ بن جبل دفاعًا عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حينما تخلف يوم تبوك حينما سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما فعل كعب بن مالك؟**» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

وعن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: دعتني أم حبيبة زوجة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موتها فقالت: قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك، فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك[(٢)].

ومن إنصاف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعدله وإخلاصه ونصحه وسلامة قلبه ما أورده البخاري عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي علي بن أبي طالب أي الناس خير بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: أبو بكر قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر، وخشيت أن يقول عثمان قلتُ: ثم أنت: قال ما أنا إلا رجل من المسلمين[(٣)].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: كان يحيى بن سعيد يجالس ربيعة فإذا غاب ربيعة حدثهم يحيى أحسن الحديث، وكان كثير الحديث، فإذا حضر ربيعة كف يحيى إجلالًا لربيعة، وليس ربيعة بأسن منه، وهو فيما هو فيه وكان كل واحدٍ منهما مبجِّلًا لصاحبه[(٤)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٤٧٠]، ومسلم برقم [٢٧٦٦].

(٢) «السير» للذهبي (٢/ ٢١٨).

(٣) رواه البخاري برقم [٣٦٧١].

(٤) السابق (٦/ ٩٢)، (١١/ ٤٣).

obeikandl.com

قال أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني علمًا في الناس في معرفة الحديث والعلل وكان أحمد بن حنبل لا يسميه، إنما يكنيه تبجيلًا له.

وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني فإذا صح عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به.

وجاء يحيى بن معين إلى أحمد بن حنبل، فبينا هو عنده إذ مرَّ الشافعي على بغلته فوثب أحمد يسلم عليه وتبعه فأبطأ ويحيى جالس، فلما جاء قال يحيى: يا أبا عبد الله، من هذا؛ فقال: دع عنك هذا إن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة[١].

عن أبي محمد فوزان قال: جاء رجل إلى الإمام أحمد فقال: نكتب عن محمد بن منصور فعمن يكون ذلك؟ قالها مرارًا: فقال الرجل: إنه يتكلم فيك، فقال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رجل صالح ابتُلِيَ فينا فما نعمل[٢].

وعن أبي يعقوب المدني أنه قال: كان بين حسن بن حسن وعلي بن الحسين -يعني زين العابدين- بعض الأمر فجاء حسن بن حسن إلى علي بن الحسين وهو جالس مع أصحابه في المسجد فما ترك حسن شيئًا إلا قاله له -يعني ما ترك سبًا ولا شتمًا إلا قاله له- قال أبو يعقوب: وعليٌّ ساكت، فانصرف حسن، فلما كان من الليل أتاه علي بن الحسين في منزله فقرع عليه بابه فقال له: يا أخي، إن كنت صادقًا فيما قلت فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك، السلام عليكم، فتبعه حسن بن حسن والتزمه وبكى بكاء شديدًا حتى رق له زين العابدين، فقال الحسن: لا جرم لا عدتُ في أمر تكرهه فقال زين العابدين: وأنت في حلٍّ مما قلتَ لي.

---

(١) «السير» (١٠/ ٨٦).

(٢) المصدر السابق (١١/ ٣١٧).

قال زيد بن أسلم: دُخل على أبي دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مريض وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عمل أوثق عندي من اثنين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى: كان قلبي للمسلمين سليمًا.

وفي ترجمة الإمام البخاري محمد بن إسماعيل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول الذهبي: وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك، فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ويتلو أيضًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، فقال له عبد المجيد ابن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[(١)]، وقال محمد بن أبي حاتم: وسمعته يقول: لم يكن يتعرض لنا قط أحد من أفناء الناس إلا رُمي بقارعة ولم يسلم، وكلما حَدَّث الجهال أنفسهم أن يمكروا بنا رأيت من ليلة في المنام نارًا توقد ثم تطفأ من غير أن يُنْتَفَعَ بها فأتأول قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكان هَجِّيراه من الليل إذا أتيته في آخر مقدمه من الطرق: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠][(٢)].

ويقول ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية: وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددتُّ أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع ثم قام من فوره إلى بيت أهله فَعَزَّاهم وقال: إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسرُّوا به ودعوا له وعظموا هذا الحال منه رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٣٣٠]، ومسلم برقم [١٨٤٥].

(٢) «السير» (٤/ ٣٩٧)، (١/ ٢٤٣)، (١٢/ ٤٦١-٤٦٢).

(٣) «تهذيب المدارج» [٤٣٧].

واستفتى السلطان محمد بن الملك المنصور قلاوون شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموه في حق شيخ الإسلام، وأخرج السلطان من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله، قال شيخ الإسلام: ففهمت مقصوده أن عنده حنقًا شديدًا عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حلٍّ من حقي ومن جهتي، وسَكَّنْتُ ما كان عنده عليهم، قال: فكان القاضي زين الدين بن مخلوف -قاضي المالكية- يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نبق ممكنًا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا[(١)].

ثالثًا- تطهير القلب من الحسد:

الحسد مرض خطير مهلك لصاحبه، ولا يتمكن الحسد إلا من قلب مظلم غافل جاهل قد تكدر وتلوث بالحقد والسخط، ومعنى: الحسد تمني زوال النعمة عن صاحبها، وقد أمر الله جَلَّجَلَالُهُ بالاستعاذة من شر الحاسدين، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفَلَق: ٥]، وأنكر الله عَزَّوَجَلَّ على قوم مجرمين حسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ٥٤]، وقد نهى عنه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**»[(٢)]، وحينما نتكلم عن تطهير القلب من الحسد يرد سؤال مؤداه: هل يحسد المؤمن؟ والجواب: نعم قد يحسد المؤمن أخاه ومن ثَمَّ قال نبي الله يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لولده يوسف الصديق، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يُوسُف: ٥]، وقال إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يُوسُف: ٨-٩].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٤).

(٢) رواه مسلم برقم [٢٥٥٩].

وأما الدواء الذي يزيل الحسد من القلب فيتلخص في معرفة أضرار الحسد في الدنيا والآخرة، فمن علمها وأيقن بلقاء الله جَلَّجَلَالُهُ انزجر عن الحسد، ومن أضراره أن يعلم الحاسد أنه هو الخاسر الوحيد من وراء حسده ولن تزول النعمة عن المحسود إلا بإذن الله وقدره ، وأن يعلم الحاسد أنه سوف يظل في هم دائم وغم متجدد كلما رأى نعم الله تزداد على ذلك المحسود، وأن هذا الحسد يؤدي بالحاسد إلى الهلاك والدمار كما قال القائل: لله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله.

ومما يزجر عن الحسد أن يعلم الحاسد أنه معترض على أقدار الله وأنه كاره لحكم الله منازع له عَزَّوَجَلَّ في قسمته التي قسمها لعباده، فمن كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر والقدر خيره وشره لا بد أن يدفع عن نفسه داء الحسد وأن يستعيذ بالله منه، وأن يلجأ إلى الله في أن يطهر قلبه منه، ومن ذلك أيضًا أن يعلم الحاسد أنه بحسده متشبه بالمشركين والشياطين، فالمشركون يتمنون الشر وزوال النعم عن المسلمين، كما قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، والحاسد يكون بحسده جنديًا من جند إبليس يسخره إبليس لإمضاء ما يريد في عباد الله الصالحين فهل يريد الحاسد لنفسه أن يكون جنديًا لإبليس وعدوًا لله جَلَّجَلَالُهُ؟!

ومما يزجر عن الحسد أن يعلم الحاسد أن المحسود سوف ينتفع بهذا الحسد في الآخرة لأنه مظلوم بذلك، وسوف يأخذ من ديوان حسنات الحاسد ويضمها إلى حسناته ويطرح من سيئاته ويحط على ديوان سيئات الحاسد، ومما يزجر عن الحسد أن يعلم الحاسد أنه سوف يكون منبوذًا مكروهًا عند الناس، سوف يتأذى الناس برؤيته، ويفرون من لقائه ويستعيذون بالله من شره، بل قد يجعله الناس أضحوكة يتندرون به وينقلون أخبار حسده ويتواصون بالنفرة منه والبعد عنه، فإذا رأيت على أخيك نعمة فلا تحسده، بل ادع الله له بالبركة، وسل الله أن يعطيك من فضله فإن الذي أعطاه غني قادر

على أن يعطيك مثله وأكثر، فكلما رأيت من أخيك شيئًا يعجبك فادع له بالبركة وسل الله من فضله قائلًا: اللهم إني أسألك من فضلك.

رابعًا- تطهير القلب من البخل:

العاقل المؤمن اللبيب يتحلى بالكرم ويتنزه غاية التنزه عن البخل؛ لأن الكريم واثق بربه موقن برزقه، والبخيل سيئ الظن بالله معذب لنفسه في دنياه وأخراه، وقد زجر الله عباده عن البخل أشد الزجر، وحذرهم منه فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وأي داءٍ أدوى من البخل**»(١).

وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أُفٍّ للبخل، والله لو كان طريقًا ما سلكته، ولو كان ثوبًا مالبسته(٣).

وقال بشر: النظر إلى البخيل يقسي القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين.

وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه(٤).

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» [٢٩٦]، والحاكم في «المستدرك» برقم [٤٩٦٥]، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» [٢٢٧].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٥٧٨].

(٣) «روضة العقلاء لابن حيان» [٢٤٩].

(٤) «موعظة المؤمنين» للقاسمي [٣٤٦].

وقال الإمام أبو حاتم ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البخل شجرة في النار، أغصانها في الدنيا، من تعلق بغصن من أغصانها جره إلى النار، كما أن الجود شجرة في الجنة، أغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها جره إلى الجنة؛ والجنة دار الأسخياء، والبخيل يقال له في أول درجته البخيل، فإذا عتا وطغى في الإمساك يقال له الشحيح، فإذا ذم الجود والأسخياء يقال له لئيم، فإذا صار يحتج للبخلاء ويعذرهم في فعالهم يقال له الملائم، وما اتَّزَرَ رجل بإزار أهتك لعرضه ولا أثلم لدينه من البخل[١].

وعلاج هذا المرض الخطير: كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل البخيل من أصحابه فيعلم أنه متثقل مستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه، ويعالج قلبه أيضًا بأن يتفكر في مقاصد المال وأنه لماذا خلق؟ فلا يحفظ منه إلا قدر حاجته والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله، فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلًا، فإذا تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه البذل ويصده عنه[٢].

ومما يعين على علاج البخل كذلك أمور منها:

القناعة:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه**»[٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي للإنسان أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء[٤].

(١) «روضة العقلاء» [٢٤٥].
(٢) «موعظة المؤمنين» [٤٣٩] ط دار الحديث.
(٣) رواه مسلم برقم [١٠٥٤].
(٤) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٣٨) ط العبيكان.

obeikandi.com

التفكير في مقصود المال:

المال وسيلة وليس غاية، والمرء مسئول بين يدي الله عن هذا المال من أين اكتسبه وفيم أنفقه، فعن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»(١).

مجاهدة النفس:

وذلك بفتح مجالات للإنفاق في سبيل الله، فإذا وجد الإنسان في قلبه بخلًا فليدفعه ببذل المال في وجوه الخير والصدقات وفيما يعود عليه نفعه في الآخرة، فإن للإنفاق في سبيل الله طعمًا ولذة عجيبة يستشعرها المرء في قلبه، فلابد من مجاهدة النفس حتى يصير الإنفاق لها عادة وسجية.

اتباع هدي النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبيُّ صلى الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم لا يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها(٣).

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢٤١٧] وحسنه الألباني في «الصحيحة» [٩٤٦].

(٢) رواه البخاري برقم [١٩٠٤]، ومسلم برقم [١١٥١].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٣١٢].

openkandil.com

معرفة فضل الإنفاق وعاقبة الإمساك:

المال لا ينقص بالنفقة بل يزيد لأن الله عَزَّوَجَلَّ يخلف على المنفق ويبارك له في رزقه أما مال البخيل فهو ممحوق البركة متوعَد بالهلاك والتلف، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله تعالى: «**أنفق يا ابن آدم يُنفق عليك**»(٢)، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما نقصت صدقة من مال**»(٣).

وعن أبي أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها، كما يربى أحدكم فَلوَّه حتى تكون مثل الجبل**»(٤).

كثرة الدعاء:

من أراد أن يطهر قلبه من البخل أو من أي آفة أخرى فليلح في الدعاء، وليدم عليه، وليكثر منه، وليتحر أوقات الإجابة، فإنه إذا أُلهم الدعاء فقد أُلهم الإجابة، ولا تكف عن الدعاء في أي أمر حتى يحقق الله لك ما تبغيه وترجوه، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أخدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيرًا يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدين وغلبة الرجال**»(٥).

---

(١) رواه البخاري برقم [١٤٤٢]، ومسلم برقم [١٠١٠].

(٢) رواه البخاري برقم [٥٣٥٢]، ومسلم برقم [٩٩٣].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٥٨٨].

(٤) رواه البخاري برقم [١٤١٠]، ومسلم برقم [١٠١٤].

(٥) رواه البخاري برقم [٢٦٧٩].

obeikandi.com

معرفة أن البخل معرة لصاحبه وشؤم عليه:

البخل عار على صاحبه في الدنيا والآخرة وأشقى الناس به نفسه وأهله، فقد يظل المسكين يجمع المال ويكنزه ثم يموت ويتركه لغيره.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا ينكر أن الطباع تحب المال؛ لأنه سبب بقاء الأبدان، لكنه يزيد حبه في بعض القلوب حتى يصير محبوبًا لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد، فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب ويمنعها اللذات، وتصير لذاته في جمع المال، وهذه جبلة في خلق كثير، ولقد كان أبو الحسن البسطامي مقيمًا على رباط البسطامي الذي على نهر عيسى، وكان لا يلبس إلا الصوف شتاءً وصيفًا، وكان يُحترم ويُقصد فخلف مالًا يزيد على أربعة ألاف دينار.

ورأينا بعض أشياخنا وقد بلغ الثمانين وليس له أهل ولا ولد وقد مرض فألقى نفسه عند بعض أصدقائه يتكلف له ذلك الرجل ما يشتهيه وما يشفيه، فمات فخلف أموالًا عظيمة.

ورأينا صدقة بن الحسين الناسخ وكان على الدوام يذم الزمان وأهله ويبالغ في الطلب من الناس ويتجفف[1]، وهو في المسجد وحده ليس له من يقوم بأمره فمات فخلف فيما قيل ثلاث مائة دينار.

وكان يصحبنا أبو طالب بن المؤيد الصوفي، وكان يجمع المال فسُرق منه نحو مائة دينار، فتلهف عليها وكان ذلك سبب هلاكه، وبعد أن ذكر شيئًا من صفة البخلاء قال عنهم: فالويل لهم ما أقل ما يتمتعون بظواهر الدنيا، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم لأن الحق عَزَّوَجَلَّ لا يميل بالقلوب إلا إلى المخلصين، فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة وهي مسك القلوب في الآخرة بالإنفاق، وما حصلوا إلا صورة الحطام، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ عقلًا يدبر دنيانا ويحصل لنا آخرتنا والرزاق قادر[2].

(١) يتجفف: يطلب الخبز الجاف.

(٢) «صيد الخاطر» [٣٠٧-٣٠٨] باختصار ط دار الحديث.

قال بعض الحكماء: البخيل حارس نعمته وخازن ورثته، وعجيب أن يشقى امرؤ في جمع ما يتركه لغيره، وإذا لم يستفد المسلم من ماله فيما يصلح معاشه ويحفظ معاده فمم يستفيد بعد؟! وفي الصحيح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أيكم مالُ وارثه أحب إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»(١).

مطالعة أخبار الأجواد:

وفي مقدمتهم الرسل والأنبياء بعد سيدهم وإمامهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا إبراهيم الخليل، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٢٤-٢٧]، وتلمح في هذه الآيات كيف أسرع إبراهيم الخليل وبادر بإحضار القري لأضيافه وخدم أضيافه بنفسه وَقَدَّمَ إليهم عِجْلًا سمينًا مشويًا، وحسن ملاطفته لهم في قوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

وبعد الأنبياء يطالع المرء سيرة الصحابة الكرام فهم أجود الناس بعد الأنبياء، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الْحَشْر: ٩]، وقصة الأنصاري الذي بات هو وزوجته وعياله جياعًا بلا عشاء في سبيل أن يأكل الضيف مشهورة، وهي في الصحيح.

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قال: يبكون على دارهم، قال: يا غلام، ائتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا.

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٤٤٢].

ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي فقال: ما شأنك قال: كم هو؟ قال: خمسة عشر ألف دينار قال: فهي عليَّ.

واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للأكل فلما رفع الطعام إذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم شيئًا إيثارًا لأصحابه(١).

وعن يزيد بن أبي حبيب قال: كان مرثد بن عبد الله المزني أو [اليزني] أول أهل مصر يروح إلى المسجد، وما رأيته داخلًا المسجد قط إلا وفي كمه صدقة، إما فلوس وإما خبز وإما قمح، حتى ربما رأيت البصل يحمله، قال: فأقول: يا أبا الخير إن هذا ينتن ثيابك قال فيقول: يا ابن حبيب، أما إني لم أجد شيئًا أتصدق به غيره(٢)، والأخبار في ذلك كثيرة يرجع إليها في مظانها.

خامسًا- حراسة القلب من الآفات:

من أهم أسباب طهارة القلب وسلامته وصفائه سد المنافذ التي يدخل من خلالها السوء والفساد، وتتسرب عن طريقها الفتن والشر إلى القلب، والوقاية خير من العلاج، والسلامة أسلم، فمن حفظ قلبه عن تلك الآفات سهل صلاحه وإصلاحه واهتداؤه وثباته، وأما مع ورود الفتن إلى القلب وكثرة السماع عنها ومشاهدتها كل ذلك يؤدي بالقلب إلى الفساد والهلاك والانتكاس والفتنة عياذًا بالله، وهذه المنافذ التي تؤثر أشد التأثير في القلب هي العين والأذن وأكل الحرام وارتكاب الذنوب والخطايا وإدمانها ونخص بالذكر هنا فتنة النظر وفتنة السماع.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» [٢١٠-٢١٣] باختصار وانتقاء ط دار العقيدة.

(٢) رواه ابن خزيمة برقم [٢٤٣٢].

حفظ البصر سلامة للقلب

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، كذلك قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته، وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان رديف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر من مزدلفة إلى منى، فمرت ظَعْنٌ يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن فحوَّل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسه إلى الشق الآخر[(١)]، وهذا منعٌ وإنكار بالفعل فلو كان النظر جائزًا لأقره عليه[(٢)].

البصر هو نافذة القلب فإذا تخبث النظر بالحرام تخبث القلب به في الحال، ولا أسلم من غض البصر وصرفه سريعًا قبل أن تنقش صورة المنظور إليه في القلب ثم يتعاهدها الشيطان ويسقيها حتى يحركها ويجعلها شهوة وفتنة يصعب معالجتها، وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظر الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»[(٣)].

وفي الصحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فالعين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه النطق، والرجل تزني وزناها الخُطى، واليد تزني وزناها البطش، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري برقم [١٥١٣]، ومسلم برقم [١٣٣٤]، والظعن جمع ظعية وهي المرأة.

(٢) «روضة المحبين» [٨٩].

(٣) رواه مسلم برقم [٢١٥٩]، والترمذي برقم [٢٧٧٦].

(٤) رواه البخاري [٦٢٤٣].

obeikandl.com

قال ابن القيم في شرح هذا الحديث: فبدأ بزنا العين؛ لأنه أصل زنا اليد والرجل والقلب والفرج؛ ونبه بزنا اللسان بالكلام على زنا الفم بالقبل، وجعل الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبًا له إن لم يحققه، وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها(١).

قال الحسن البصري: من أطلق طرفه طال أسفه، وقال العلاء بن زياد: لا تتبع بصرك رداء امرأة فإن النظرة تجعل في القلب شهوة.

وقال ذو النون: اللحظات تورث الحسرات، أولها أسف وآخرها تلف، فمن تابع طرفه تابع حتفه وقال بعض الحكماء: أول العشق النظر وأول الحريق الشرر.

قال سفيان: وكان الربيع بن خثيم يغض بصره، فمرَّ به نسوة فأطرق حتى ظن النسوة أنه أعمى، فتعوذ بالله من العمى(٢).

يقول ابن الجوزي: فاحذر يا أخي وفقك الله من شر النظر، فكم قد أهلك من عابد، وفسخ عزم زاهد، فاحذر من النظر فإنه سبب الآفات إلا أن علاجه في بدايته قريب، فإذا كرِّر تمكن الشر فصعب علاجه، وأضرب لك مثلًا: إذا رأيت فرسًا قد مالت براكبها إلى درب ضيق فدخلت فيه ببعض بدنها، ولضيق المكان لا يمكن أن تدور فيه فصحيح به إرجاعها عاجلًا قبل أن يتمكن دخولها، فإن قبل وردها خطوة إلى ورائها سهل الأمر وإن توانى حتى ولجت ثم قام يجذبها بذَنَبِها طال تعبه وربما لم يتهيَّأ له.

وكذلك النظرة إذا أثرت في القلب فإن عجَّل الحازم بِغَضِّها وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر نقَّب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرغ فنقشها فيه، فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تسقى بها الشجرة فلا تزال تنمو فيفسد القلب

---

(١) «روضة المحبين» [٨٩-٩٠].

(٢) «ذم الهوى «لابن الجوزي» [٨١-٨٣] باختصار وانتقاء ط دار المنار.

ويعرض عن الفكر فيما أمر به ويخرج بصاحبه إلى المحسن ويوجب ارتكاب المحظورات ويلقى في التلف، والسبب في هذا الهلاك أن الناظر أول نظرة التَذَّ بها فكررها يطلب الالتذاذ بالنظر مستهينًا بذلك، فأعقبه ما استهان به التلف، ولو أنه غضَّ عند أول نظرة لسلم في باقي عمره[1].

ومما يدعو إلى غض البصر معرفة فوائد غض البصر والثمرات الحاصلة من غضه ومن هذه الثمرات ما يلي:

الفائدة الأولى: تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق بصره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه وذلك غاية ألمه وعذابه، قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهاة فجعلت أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا، ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظرُ

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ... ولا عن بعضه أنت صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية، فإن لم تقتله جرحته وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه، والناظر يرمي من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر فهو إنما يرمي قلبه.

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه.

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب صحت الفراسة، لأنه يصير بمنزلة المرآة المجْلُوَّة تظهر فيها المعلومات كما هي،

(١) المصدر السابق [٨٣-٨٤].

obeikandi.com

والنظر بمنزلة التنفس فيها فإذا أطلق العبد نظرة تنفست نفسه الصعداء في مرآة قلبه فطمست نورها.

قال شجاع الكرماني: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطئ فراسته، وكان شجاع لا تخطئ له فراسة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غض بصره عن المحارم عوضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إطلاق نور بصيرته، فلما حبس بصره لله أطلق الله نور بصيرته، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب؛ فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض، ومن أرسل بصره؛ تكدر عليه قلبه، وأظلم وانسد عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، وفي الأثر: «إن الذي يخالف هواه يَفْرَقُ الشيطان من ظله»، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه، قال الحسن: إنهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين فإن ذل المعصية لَغْيُ قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، وقال بعض الشيوخ: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله؛ ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه قسط ونصيب من فعل من عاداه بمعاصيه وفي دعاء القنوت: «**إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت**»[(١)].

(١) رواه الترمذي برقم [٤٦٤] وصححه الألباني في «الإرواء» برقم [٤٢٩]..

الفائدة السادسة: أنه يورث القلب سرورًا وفرحة وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا لما كف لذته وحبس شهوته لله، وفيها مسرة نفسه الأمارة بالسوء؛ أعطاه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب، ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما وهاهنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة: أنه يخلص القلب من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، ومتى أسرت شهوة الهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار:

كعصفورة في كف طفل يَسُومها ... حياض الردى والطفل يلهو ويلعبُ

الفائدة الثامنة: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على موافقة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب ضَرِي[1] على المحظور ولم تقف نفسه عند غاية.

الفائدة التاسعة: أنه يقوي عقله ويزيده ويُثَبِّتُهُ، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب، ومرسلُ النظرِ لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره.

الفائدة العاشرة: أنه يخلص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فالنظرة كأسٌ من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات[2].

(١) ضَرِي: أي تجرَّأ.

(٢) هذه الفوائد مختصرة من كتاب «روضة المحبين» لابن القيم [٩٣-١٠٠].

ومما يستعين به العبد على غض بصره أن يعلم العبد أن الله يرى نظراته ويطلع عليه، بل إن بصر الله له يسبق نظره إلى الشيء الذي ينظر إليه، فليستحِ العبد من ربه أن يملأ قلبه من الحرام ويشبع نفسه من خيانة النظر، والله ناظرٌ إليه مطلع عليه يراقبه ولو شاء لخسف به الأرض، فإياك إياك أن تجعل الله أهون الناظرين إليك، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غَافِر: ١٩].

لفتة:

وهنا إشارة لا بد منها، أن غض البصر يشمل أمرًا آخر غير النساء وهو غض البصر عن زينة الدنيا وشهواتها والنظر إلى أموال الأغنياء والمترفين وتأمُّل ما هم فيه من نعيم، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طٰهٰ: ١٣١]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم**»(١).

حفظ القلب من خطرات السوء:

الخطرات شأنها خطير فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته؛ ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات ولا تزال الخطرات ترد على القلب حتى تصير مُنىً قال تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النُّور: ٣٩]، وأخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتحلى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيءٍ

(١) رواه البخاري برقم [٦٤٩٠]، ومسلم برقم [٢٩٦٣].

على الإنسان ويتولد منها العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم، والمتمني لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حَوَّل صورتها في قلبه وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره، وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور في وهمه صورة الطعام والشراب وهو لا يأكل ولا يشرب، والسكوت إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس وَرَضَاعَتِهَا، وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها بأن ينفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها، ولا يرضى أن يخطرها بباله ويأنف لنفسه منها.

ثم الخطراتُ بعدُ أقسام تدور على أربعة أصول: خطرات يَسْتَجْلِبُ بها منافع دنياه، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته وخطرات يستدفع بها مضار آخرته، فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة فإذا انحصرت له فيها؛ فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاحمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته وأخر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته[(١)].

حفظ السمع

من أهم أسباب سلامة القلب حفظ السمع عن سماع ما يكدر الإيمان ويشوِّه الحقائق الثابتة.

وأخص بالذكر ابتداء تلك المواقع والقنوات التي تدأب على إثارة الشبهات وتعمل على هدم أصول الإسلام وثوابت الدين، من ذلك مواقع التنصير ومواقع الشيعة وقنواتهم التي تَبُثُّ سيلًا من الشبهات والضلالات، فلا تعطهم أذنك ولا تمكنهم من سمعك فيفسدوا قلبك، وكذلك حفظ السمع عن سماع الأغاني والموسيقى تلك التي تنبت النفاق في القلب، وهذا ليس من كلام النبي ﷺ بل قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع[(٢)].

---

(١) «الداء والدواء» [٢١٥-٢١٦].

(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٢٤٨).

وقال الضحاك: الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدِّب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم أن صوت المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء.

قال ابن القيم: فالغناء يفسد القلب وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق[1].

ومما ينبغي التحفظ منه وحفظ السمع عنه الغيبة والنميمة ومجالسة أهلها، فإن ذلك من أشد ما يقسي القلب، وكذلك الفحش والكذب والمزاح الكثير الذي يَجُرُّ إلى الكذب والإغراق في الضحك والغفلة عن الآخرة، كل ذلك مما يفسد القلب ويحدث فيه قسوة، فينبغي على العاقل أن يحفظ قلبه من كل سوء يؤثر فيه، ومن كل شر يتسرب إليه، ومن كل آفة تفسده، ومن كل سبب يمرضه، فاحفظ قلبك واحرسه ودم على ذلك ولا تترك هذا المنهج حتى تلقى الله جَلَّجَلَالُهُ.

❁❁❁

(١) المصدر السابق (١/ ٢٥١) وارجع إلى هذا الكتاب لابن القيم تجد بحثًا موسعًا عن الغناء وحكمه.

openkanal.com